منهجية القدامى في التصنيف لكتب الاختيارات الشعرية

أ. علـــي كرباع
جامعة باتنة .

ملخص

المختارات الشعرية هي أحد الركائز لبناء النقد الأدبي غايتها تجسيد روح و ذوق العصر، و لذا كان اهتمام القدامى بها كبيرا و ذلك بالنظر في تلك الدواوين الشعرية و اختيار جيد النصوص فيها بحثا على القيمة الفنية و الجمالية و إبقائها حية مدى الأزمان و العصور، سعيا منهم في الحفاظ على تراثهم الأدبي متبعين طريقة التنقيب و التلقي و القراءة في اختياراتهم سواء كانت هذه المناهج قائمة على الذوق أو على الغرض الشعري.

The poetic choices are one of the main factors for building literary criticism. Its purpose is to release time soul and time taste, there fore, the ancients were giving great deals of importance to that. In accordance to those poetic books and selections the best texts looking for the artistic value and beauty and keeping it alive along times and ages aiming to reserve there library traditions following the way of exploitation, reading and receiving in their choices. Either those methods were set for the taste or for the poetic purpose.

تُعدُّ تلك المختارات الشعرية ديوان العرب المختار ،و المنتقى من ذلك الكم الهائل، والتي يرى فيها أولئك العلماء النموذج الأمثل والأعلى للأدب العربي .

و مما هو محل اتّفاق أنّ الشّعر الجاهليّ فن جماليّ دوّن فيه العرب حياتهم و أحوالهم وشدّتهم ورخاءهم ، ومن هذا المُنطلق غاص الأدباء و النّقاد في اختيار النّصوص الشّعرية التي خلت من العيوب،وكان هذا الانتقاء عملا إيجابيا ،يقوم على الذّوق والفطرة،" و تبرز في مقدمة إيجابيّات عمل القدامى من النّقاد إحساسهم الشّديد بنقاء الأدب العربي، ... فقد شخّصوه برسم الصورة المثلى للغة مماثلة في القرآن الكريم ... بجمع مادة الأدب الجاهليّ و تنقيّتها من كل شائبة،وإسقاط المنحول، وتقويم المُعْوَج (1)."

و تُعْتَبر قضية النّصوص الشّعرية من أهم الأمور التي جعلت أولئك العلماء كالمفضّل، وأبي زيد القرشي، وأبي تمام و البحتري، يختارونها بل يفضّلونها و يقدّمونها على بعض النّصوص الأخرى، فعملية الذّوق الأدبي لأولئك تُعير للنّص اهتماما كبيرا،" فكأن الذّوق هو وسيلة النّقد الأدبي و أداته "(2).

فمن خلال بعض الأحكام النّقدية التي آلت إليها الدّراسات بخلو الشّعر من العيوب وجودة المعنى، وحسن اللفظ وتآلف أجزاء النظم(3) ،و ترك غريب اللّغة ... هي المقاييس لاختيار النّصوص الجيّدة،والتي تراعي جمال السّبك و النّظم والسّير على خطى الماضين.فنسجوا خيوط تصنيفهم وطرق بحثهم في الموروث الشّعري،ساعين إلى التّنقيب فيه، وإخراج دُرَرَه،بمنهجية تجسّد نظرة صاحبها وذوقه المستمد من روح عصره،فكلما وجد المصنّف النّص الجيد أخذه،لأنه يخذ ما يشاء ويترك ما يراه ضعيفا تِبْعًا لأحكامه النقدية(4).وفي هذا المجال نرى منهجيْن كان لهما الأثر البالغ في كتب المختارات.

1- الاختيار على أساس الجودة :

إنّ جودة النّص الشّعري تكمن في تلاحمه و تماسك أجزائه و تفوّقِه على النّصوص الأخرى" إنّ دعوة الشّعراء إلى التخلي عن تقاليد العرب في الشعر ... لم تنجح، لذلك أن الصّراع بين القديم والجديد استمرّ تحت شكل آخر يتّصل بمدى صلة هذا الشاعر أو ذلك بعمود الشعر".(5)

فمن دواعي الاختيار" إنّهم كانوا يحاولون شرف المعنى و صحته،وجزالة اللفظ والإصابة في الوصف، ...".(6)

فبه – أي عمود الشعر- يُعرف مدى صدق أصحاب الاختيارات بالاعتدال في اللفظ والمعنى، فهي تعكس لنا الذّوق لكل عالم مُستّمد من ذوق العصر. فيمكن أن نُجمل لما ذهب إليه المرزوقي وبعد نظره في الأحكام السّابقة اهتدى إلى تلك المقاييس النّقدية .

إنّ الشّعر العربي محال؛" أن يحيط به محيط أو يقف وراء عدده واقف، ولو أنْفد عمره في التّنقيب عنهم ، و استفرغ مجهوده في البحث و السؤال ".(7)

فجودة الشّعر بناء متماسك وليد نتاج قوي، ذو نظرة دقيقة، فتكون الأجزاء متلاحمة من أوله إلى آخره، وإلا ضَعُفَ .

كما نُقِل عن الأصمعي قوله:"إن شّعر ذو الرّمة حلو أول ما نسمعه،فإذا كثُر إنشاده ضعف"(8) ، و قد علّقت الكاتبة على هذا القول: "و هذا الحكم على شعر ذو الرّمة يوحي بأنّه متفاوت القيمة، لا يعبّر عن مستوى مستمر و ثابت من الجودة، وإنّما يعلو ويهبط، وليس ذلك من شأن شعراء الفحول " .(9)

و كذلك أن جودة النّص الشّعري تكمن في شهرة صاحبه، وتفوّقه على شعراء العصر فهذا العامل يجعل من النّاقد يُفَضّل هذه النّصوص بعضها على بعض .فهذه الفكرة التي اعْتُمِدت كانت دليلا للبحث عن السّياق المحيط بالشاعر.

و المتأمل في هذا الحكم يرى فيه شيئا من الغموض،" و من أصحاب هذه المختارات من راعى الشّهرة فيمن يختار لهم ، كالمفضّل الضّبّي ... ولم يختر للشّاعر الواحد أكثر من ثلاث قصائد في أندر الأحوال، فهو لم يقيِّد نفسه بعدد محدد من القصائد لكل شاعر وإنّما كان حرًّا في الاختيار، ولو اطّلعنا على دواعي الاختيار التي جعلته يفضّل ما فضّل من مختارات".(10)

و على هذا الاعتبار قامت الأصمعيّات وجمهرة أشعار العرب ، ولا ضَرْو أنّ النّصوص كانت تُختار محاسنها حسب أحكام العصر، فنجد بعض أصحاب المختارات يحدِّدون جودة النّص الشّعري بزمن معين، فيقتصرون على الجاهليّ و الإسلامي، و قد جعلوا من النّصوص الشّعريّة التي تليها قد مسها شيء من التّأثيرات و التّغيّرات،كشعر المولّدين الذي أصابه الضعف .

يقول أبو زيد القرشيّ في مقدمته: " هذا كتاب جمهرة أشعار العرب في الجاهليّة والإسلام؛ الذين نزل الإسلام بألسنتهم و اشتُقّت العربيّة من ألفاظهم ،واتُّخذت الشّواهد في معاني الحديث من أشعارهم ، وأسندت الحكمة والآداب إليهم. تأليف أبي زيد محمد بن أبي الخطاب القرشي، وذلك أنّه لمّا لم يوجد من الشّعراء من بعدهم إلا مضطرّا إلى الاختلاس من محاسن ألفاظهم ، وهم إذ ذاك مكتفون عن سواهم بمعرفتهم".(11)

فمعظم قضايا الجودة لتلك النّصوص تكمن في حسن اللفظ و جودة المعنى، و قد أورد ابن قتيبة في كتابه الشّعر والشّعراء قوله: " أن أحد الرجال أتى نصر بن سيّار والي خرسان لبني أمية، فمدحه بقصيدة تشبيهها مائة و مديحها عشرة أبيات فقال نصر : و اللّه ما أبقيت كلمة عذبة و لا معنى لطيف إلا قد شغلته عن مديحي بتشبيبك.(12)

فجمال النّص الشّعري و جودته وليدة حسٍّ مرهف، وتصوير دقيق وخيال واسع، ولغة بعيدة عن التّكلف واللّحن، وقوة التّسلط على نفسية السامع ،" أما حقيقة الخيال الشّعري فتظهر بوضوح فيما يقدِّمه الشّاعر من صورة شعريّة تكون قادرة ليس فقط على النفاذ إلى نفس المتلقي و التّأثير فيه، بل قادرة على تمكينه من رؤية الأشياء غير المألوفة، تلك فاعليّة الخيال الشّعري حين يوحِّد بين المادي والحسي والفكري والمعنوي، و يذيب الحدود المصطنعة ".(13)

فصورة الشّعر المثالي الجيِّد هو ذلك الكلام الذي جرى على الفطرة و السّليقة، ومعاني توحي إليهم بها حياتهم ، فمن خصائص ذلك السهولة و الوضوح، وعبارات قويّة ورصينة، القصد منها إبراز المعنى و تحديده.

فعوامل الجودة في الشّعر؛ هي تلك المقاييس النّقدية التي يضعها النّاقد لاختيار أشعار العرب،" فجامع شعر شاعر لا يترك نصًا لهذا الشّاعر لعدم رضائه الشّخصي

عنه،و لكنه يُدوّن كل ما يصل إليه من شعر ، أما الاختيارات الشّعرية فإنّ المؤلّف يأخذ ما يشاء و يترك ما يشاء تبعا لأحكامه النقدية .... ".(14)

و خلاصة ذلك أنّ أساس الجودة تُظهر لنا ملامح حسن الاختيار للقصيدة المتكاملة في أجزائها و عناصرها، وهي اللفظ والمعنى والوزن والقافية، وحسن افتتاحه، ولطف الانتهاء، وترك الغريب والنزوح إلى المألوف، و كما أن سمو القصيدة يكمن في قوة الخيال والعاطفة.

نموذج- المفضل الضبي و كتابه المفضليات

يُعْتَبر تاريخ الاختيارات الشّعرية كبداية لتدوين النّصوص الشّعرية لذلك الموروث الشّعري،وإن اهتمام الدارسين لها جعلهم يتخذون لذلك طرقا فظهرت تلك المناهج المتباينة في هذا التّصنيف الشّعري .

و يُعدُّ المفضّل الضّبّي ممن أرسى طريقة التّأليف في الشّعر العربي، فقد اختار طريقته التّدوينيّة على أساس الجودة الشّعرية ،وهو صاحب هذا المنهج ورائده دون منازع "ومن أصحاب هذه الاختيارات التي راعى الشّهرة فيمن يختارهم؛ كالمفضّل الضّبّي الذي يبدو لنا أن مفضّليّاته أقدم كتب المختارات في الشّعر العربي ".(15)

والمفضّل ذو مكانة عالية ورفيعة في التاريخ الأدبي،فهو شخصية بارزة،وكل من تحدّث عنه إلا وقد ربطه بالشّعر والأدب والحديث،وإنّ اهتمامه بالشّعر العربي وتمحيصه والفصل بين جيّده ورديئه جعله يعكف على دراسته والنّظر فيه ،فأخرج مجموعته المشهورة بالمفضّليات نسبة له ،وتُعدّ طريقته في التّأليف الطّريقة الأولى ،التي كان ميْل أصحابها إلى إيجاد النّصوص الجيّدة التي تُوَضح الجوانب الأدبيّة ،لنقل مظاهر الحياة في أيِّ زمن.

إن إرساء القواعد الأولى والتي انبثق من خلالها جمع الشّعر العربي يرجع الفضل فيها للمفضّل، والذي غلب عليه الجمع دون التصنيف.

كتاب المفضليات

المفضّليات :هي مجموعة شعرية من القصائد التي اختارها المفضّل عندما طلب منه أبو جعفر اختيار قصائد لتأديب ابنه المهدي، بعدما عفا عنه حين ظفر به ،"وإن المفضّل كان فيمن اشترك في ثورة إبراهيم بن عبد الله الطّالبي،على أبي جعفر المنصور الخليفة العبّاسي الثّاني، فلما أخفقت تلك الثّورة وظفر المنصور بالمفضّل عفا عنه، وألزمه تعليم ابنه المهدي، فاختار له تلك الأشعار التي سُمِّيت بالمفضّليات " .(16)

و يذهب الطاهر أحمد مكّي أنّ المفضّل لم يكن يقصد جمعها هكذا مطلقا، بل اتخذها منهجا تعليميّا ،"وأغلب الظّنّ أن المفضّل لم يكن يهدف إلى تأليف مجموعة

نهائية لا سبيل إلى التّبديل فيها، وإنّما كان بصدد مختارات يغلب عليها الطّابع التّعليمي التّثقيفي، استجادها لنفسه أو لتلميذه، وظلّت تنتقل عن طريق الرّواية الشّفويّة زمنا، أوضحها رواية ابن الأعرابي حفيد المفضل ".(17)

و ينقل عز الدين إسماعيل موقفا آخراً يُستخلص منه أنّ هذه القصائد قد سبق اختيارها حدث الظفر بالمفضّل، وإنما أتمّها وحفّظها المهدي، فهي لم تكن قصد تعليمها ابن الخليفة، وإنما اضطرّه الزمن لذلك، "فقال له إبراهيم ، إنّك إذا خرجت ضاق صدري، فأخرج إلي شيئا من كتبك أتفرّج به ، فأخرج المفضّل إليه كتبا في الشّعر والأخبار ... فلما عاد وجده قد علم على سبعين قصيدة اختارها ، و كان له ذوق حسن في الشّعر ، ويبدو أن المفضّل استخرج القصائد السّبعين ثم زاد عليها عشرا فيما بعد، فإنه عندما ظفر المنصور بإبراهيم ظفر كذلك بالمفضّل، ولكنه عفا عنه و ألزمه ولي عهده المهدي يؤدبه ، و قد قدّم المفضل لتلميذه القصائد الثمانين فقرأها هذا عليه".(18)

فهذه الرّواية التي روتها كتب الآداب في هذه الحادثة ؛تُبَيِّن لنا أن المفضّل كانت له علاقة بالشّعر قبل حادثة إبراهيم الطّالبي، وإنما هذا الظرف وحالة القبض عليه، وإلزامه تأديب المهدي، هي العوامل الكبرى في إخراجه هذه القصائد المختارة، التي جسدت ذوقه الأدبي، فهاته الفكرة ليست وليدة عصرها؛ بل قد سُبقت ببحث في بطون كتب الشّعر والأخبار، فاعتناؤه بهذا الصّنيع منذ زمن، و بعد دراسة وبحث في تلك المجاميع الشّعرية .

و لم يتطرّق النّقاد و الباحثون إلى القول أنّ هناك من ألّف في هذا المجال، إلا قولهم أن اختيارات حمّاد كانت رواية للشّعر.

و يقول محقّقا المفضّليات: "و لا نعلم أحدا قبل المفضّل أقدم على أن يصنع للنّاس اختيارا من الشّعر،إذ كان جُلُّ هم الرُّواة أن يقتنصوا هذه الثروة الفنيّة التي وصلت، وأن يتناقلها أحدهم عن الآخر، سعيا منهم إلى حفظ هذه اللغة ما أمكنهم ، ولم يؤثر عنهم شيء من الاختيار فيما نعلم، إلا ما رُوي عن تنازعهم عن أفخر بيت للعرب، و أهجاه و أغزله، ومن مجادلتهم في أشعر الشّعراء، و أجودهم قولاً ". (19)

و في هذا الكلام يظهر للقارئ؛ أنّ اهتمام النّقاد القدامى ببعض جزئيات النّص الشّعري، ولم يكن جُلُ اهتمامهم بالنص كاملا، فالنّظرة الضّيقة التي تجعل النص محصورا في زاوية الذّوق وليس في زاوية انسجام أجزائه و تلاحمها فهذه النّظرة الشّمولية، التي سبق المفضّل فيها غيره، وكانت لبنة الأساس في مجال الاختيارات .

أما فيما يخص عدد قصائد المفضّليّات فقد انتابها شيء من الكلام ،يقول عز الدين إسماعيل : " و قدم المفضّل قصائده لتلميذه القصائد الثّمانين ، فقرأها هذا عليه، ثم قرئت هذه القصائد نفسها على المفضل بعد ذلك، و نسبت إليه، و عُرفت باسمه".(20)

و أما هذا العدد الذي تُعرف به الآن، وهو مائة و ثلاثين قصيدة أو أقل بيسير هو من وضع الأصمعي ،"فالكتاب يجمع بين دفتيه مائة وثلاثين قصيدة، ويُذكر أن المفضّل كان قد اختار في البداية سبعين قصيدة ،ثم زادها عشرا فأصبحت ثمانين، ولكن تلميذه الأصمعي زاد عليها بعد ذلك عددا من القصائد من اختياره".(21)

فالمفضّليات هي المجموعة الشّعرية التي نسج خيوطها المفضّل، و أتمّها الأصمعي من بعده. ولكن في هذا الكلام غموضا وعموما، ويمكننا أن نطرح بعض الأسئلة منها : هل الذين درسوا الشّعر العربي كانوا على علم بذلك؟ وما هي الدّواعي والعوامل التي جعلت من الأصمعي يُضيف إليها القصائد الأخرى ؟. فإن كانت هذه القصائد ليست من اختيار المفضّل لماذا نسبوها إليه؟، والظاهر أن هذه الطّريقة كانت معتادة عندهم والله أعلم ، فالتلميذ يستدرك عن شيخه للتّمام والإكمال، أو كأن الذّوق واحد بينهما.*

و إن تلك القصائد فقد اشتملت على الجزالة و التّماسك القوي، و التّراكيب المتينة التي توحي إلى صعوبة الانتقاء من ذلك الكم الهائل من القصائد العربيّة المعروفة .

أما فيما يخص الشّعراء الذين أخذت المفضليات قصائدهم فيبلغ عدد الشّعراء الجاهليّين ستة و ستين شاعرا جاهليا، وخمسة عشر من الإسلاميين، "ومعظم شعراء هذه المجموعة جاهليون، وقليل منهم مخضرمون وأقلّ منهم إسلاميون ، وهناك ستة و عشرون شاعرا لا تظم المجموعة لكل منهم سوى قصيدة واحدة، وثمانية وعشرون شاعرا وردت لكل منهم قصيدتان، و تسعة شعراء وردت لكل منهم ثلاث قصائد، و شاعر واحد وردت له أربعة قصائد وهو ربيعة بن مقروم الضّبّي، وشاعر واحد وردت له خمس قصائد وهو المرقش الأصغر، و شاعر واحد وردت له اثنتا عشرة قصيدة وهو المرقش الأكبر".(22)

و إن هذه القصائد قد تتراوح في طولها و قصرها فهي ليست على مستوى واحد، فهناك قصائد قد ذُكرت كاملة؛ كقصيدة سؤيد بن أبي كاهل وعددها 108 بيتا مطلعها :

بسطت رابعة الحبل لنا *** فوصلنا الحبل منها ما اتّسع.

و أقصر مقطوعة هي للمرقش الأكبر إذ يقول فيها :"

أبــأتُ بثعلبـة بن الحُشا *** م عمرو بن عوف فزال الوهـل

دما بدم و تَعَفّى الكلـوم *** ولا ينفع الأولين المــهـل".(23)

و قد تفاوت في عددها بين الخمس و الثلاثين والعشرين وغيرها.

أما من ناحية الأغراض الشّعرية التي اشتملت عليها المفضّليات، فقد اشتملت على بعضها دون الإشارة إليها، كما هو معلوم من أصحاب المختارات الأولى عدم اهتمامهم بالغرض الشّعري بقدر اهتمامهم بالنّص الشّعري الجيّد، والنّصوص في هذا المجال لم تخلو من الأغراض التي عرفها الشّعر العربيّ، و التي نسج على منوالها كبار الشعراء كزهير و النابغة ، "و لم يكن الاختيار لمشاهير شعراء الجاهليّة، وهذا ما أكسبه قيمة أخرى، إذ شعر المشهورين مدوّن محفوظ ، وتدور معاني لأشعار بعضهم على أغراض عامة كالمدح عند زهير و الأعشى و النّابغة، و الغزل عند امرئ القيس و طرفة"(24)، و ما نرى من الوصف عند تأبط شرا، و الرثاء عند أبي ذئيب الهذلي ، إلا ما هو معروف عند سابقيهم، ولم يأتوا بشيء جديد في الأغراض،حيث يُعرف عن المفضّل أنه قد عمد إلى المقلّين من الشّعراء، وأتى بأجود ما عنده ، "لا نجده يورد للشّاعر الواحد أكثر من ثلاث قصائد إلا في النادر، وهذا معناه أنّه لم يقيّد نفسه بعدد ثابت مما يختاره من كل شاعر، بل يتحرّك في شعره بحرية،فيختار له أفضل ما عنده ".(25)

و هذا النّوع من الاختيار هو تصوير لما يدور في ذهنه من أفكار، فقد عُرف عنه ميوله إلى الجزل من الشّعر القوي و المُتماسك في تراكيبه و دلالاته، يقول طه إبراهيم في معرض كلامه عن الخصومة التي جرت حول تفضيل الفرزدق عن جرير، و كيف كان المفضّل يقدّمه ويدافع عن ذلك، فشرح سبب ذلك بقوله :" وكان الذّوق العربي العام يؤثِر سهولة الألفاظ، ولذلك كان جرير أشعر عامة،والفرزدق أشعر خاصة، فقد كانت لغة جرير هي اللّغة السّهلة التي يتكلمها ويفهمها أكثر الناس، فأما الفرزدق والأخطل فلغتهما يؤثرها العلماء".(26)

فعمليّة الذّوق و الاختيار الجيّد للنّصوص التي عُرفت بقوة لغتها وفصاحتها هي التي جعلت من أولئك العلماء يميلون إلى هذا التّقديم ،وكما أشرنا فيما سبق أنّ المفضّل قد عمد إلى المقلّين، وهذا ما نلحظه في تلك المجموعة من غياب كلي لأصحاب المعلقات، سوى الحارث بن الحلزة ، و هذا ما يعبِّر حقيقة أن إحياء التّراث واختيار النّصوص الجيّدة لم يكن مقتصرا على فئة،فهو-المفضّل- عمد إلى ذلك،وقد لا تكون بواعث ذلك شخصيته؛ بل أراد أن يزيل غبار النّسيان على هذا الموروث الشّعري ، فهذا الاختيار لشعراء من أماكن متباعدة له دلالات،" ولهذا دلالة فنّية و لغويّة ،لما يحويه

من لهجات الجزيرة المتعددة، ولتصويره بيئات متنوعة،ولبيانه علاقات ذلك المجتمع بعضه البعض، وما بينه من وشائج ود وأواصر قربى".(27)

أحكام حول كتاب المفضليات :

تُعتبَر المفضّليات من أقدم المختارات التي عرفها الشّعر العربي ،فهي قد وُلدت في منتصف القرن الثّاني للهجرة، فهذه القيمة التّاريخيّة التي يُرى فيها أن أول كتاب ضمّ أفضل الشّعر العربيّ و أجمله، " وأما من الناحية الأدبيّة فإنّها قد حفظت جانبا كبيرا من الشّعر العربي الذي كان عرضة للضياع ".(28)

إنّ اهتمام المفضّل بعيون الشّعر جعله يجمع لشعراء مختلفين، ومشارب متباعدة، جمعت بين تنوع ثقافي وتاريخي، فقد وصفها شوقي ضيف بقوله : " ولو لم يصلنا من الشّعر الجاهليّ سوى هذه المجموعة الموثّقة؛ لأمكن وصف تقاليده وصفا دقيقا، فقد مثّلت جوانب الحياة الجاهليّة، ودارت مع الأيام والأحداث وعلاقات القبائل بعضها ببعض (29)."

يعود الجزء الأكبر من قصائد المفضّليّات للشّعراء الجاهليّين، ثم المخضرمين ثم الإسلاميّين، و هذا ما يُبَيِّن لنا الاهتمام البالغ بالشّعر الجاهليّ، الذي يُعدُّ الصُّورة الحقيقية للغة العربيّة الأصلية.فقصائدها ليست على مستوى واحد في الطول فهناك قصائد كاملة، وهناك أجزاء قصيرة تصل إلى بيتين؛ كما عند المرقش الأكبر، "وأن ما ورد فيها من مقطوعات لم يكن نتيجة اجتزاء المفضّل أجزاء من قصائد كاملة،فربّما كانت المقطوعة نفسها هي كل ما قاله الشاعر نفسه ".(30)

أما التّرتيب لتلك القصائد فليس هناك نظام قد اتّبعه المفضّل سوى منهج الذوق، فهو لم يهتم بالغرض الشّعري، ولا بمدى طول المقطوعة أو قصرها أو مضمونها. "وليس هناك نظام معيّن في ترتيب هذه القصائد سواء من حيث المضمون أو من حيث القيمة الفنيّة، ولكن جميعها تدلُّ على الذّوق العربي القديم ،الذي لم يفصح عنه المفضّل الضّبي(31) . و ما يلاحظ عن تلك المجموعة أنّ المفضل لم يُلحق بتلك القصائد شيئا من الأحكام أو التّعليق، حتى يتبيَّن الخيط الذي يمكن الوصول به إلى فكره، ومهما يكن تبقى المفضّليّات ذلك الموروث الشّعري،الجيد وأول كتاب في التّصنيف في هذا المجال .

2- الاختيار على أساس الموضوع الشعري :

تعتبر المرحلة التّصنيفية على أساس الغرض الشّعري التي أتى بها كثير من أصحاب الاختيارات ؛أنها مرحلة ثانية تلي المرحلة الأولى، والتي يعتمد النّاقد فيها

اختيار النّصوص الشّعرية على أساس جودتها، "و أبرز ما يميّز ديوان الحماسة أنّه أول مجموعة شعرية تُصنّف فيها الأشعار تصنيفا موضوعيّا ".(32)

و بالنّسبة إلى تصنيف الشّعر بعد اختياره؛ " أما فيما يتعلق بقضية التّبويب ، فيبدو أن أبا تمام قد اجتهد في أن يُصنّف المادة التي اختارها في البداية، فجمع كل متجانس منها بعضه إلى بعض، وأطلق عليه اسما واحدا ".(33)

فهؤلاء النّقاد من أصحاب الاختيارات لم يهتمُّوا كثيرا بصاحب القصيدة أكثر من همّهم بالغرض الشّعري ، فأحيانا تجد صاحب القصيدة مجهولا غير معروف فيدرجونه في مصنّفاتهم لقوّة نصّه وجودته،ولكن هذه الاختيارات جعلت لتبويبها طريقة جديدة "فقد قامت اختيارات البحتري على أساس معاني الشّعر، إلا في باب المراثي الذي شذّ فيه واعتمد الموضوع الشّعري ،...و لو حصرت الأبواب المتجانسة منها و ضُمّت إلى بعضها لما وصلت إلى خمسة أبواب على الأكثر من التي هي عند أبي تمام.(34)

و مما لا شك فيه أنّ النّصوص الشّعرية قد تختلف في جودتها و تماسكها، فهذا ما يجعل أصحاب الاختيارات يجنحون إلى النّصوص الشّعرية المتماسكة، وخاصة لكبار الشعراء، أو الشّعر الذي لم يخالف النّظم الشعر العربي وقواعده، "فأخذنا من أشعارهم إذ كانوا هم الأصل، غررا هي العيون من أشعارهم و زمام ديوانهم ".(35)

ففكرة الغرض الشّعري: هي فكرة نقديّة صرفة، أول من لجأ إليها ابن سلام في طبقاته، "حين شَعَر بأن نظامه الطّبقي الصّارم بدأ يخونه، يعجز عن استيعاب الشّعراء وإنصافهم، فاضطرّ إلى تخصيص طبقة إلى شعراء المراثي الذين أبدعوا في هذا الفنّ".(36)

و هذه الطّريقة هي تعبير جيّد عن المثل الأعلى للشّعر الذي يروقه، كما هي دليل قاطع لتصوير لما يختلج في النّفس، فما ألِفَتْهُ النّفس وطربت له أذن السّامع،واستحسن من طرف العرب، فذاك هو الغرض الشعري المرغوب بصدق،وبكل حيثياته وأجزائه.

و من الملاحظ على أصحاب الاختيارات هذا الاهتمام بالغرض الشّعري، سواءً أكان الباب يحمل عدة شعراء أو يقتصر على شاعر واحد. فابن الشجري،" من الواضح أنه ركز على ٍ هجاء ٍ الحُطيئة لأنه الجانب الواضح من شعره اشتهر به ، و اتخذوا منه مثلا وخافه الناس".(37)

و إن أصحاب الحماسات سعوا للبحث عن الأغراض الشّعرية، كالمدح و الهجاء والنسيب،وكانوا أحيانا يجعلون تحت الباب الواحد عدة فصول، كما فعل ابن الشجري في صفات النساء،" حيث يورد في الفصول الأولى من هذا الباب ما قيل عن ٍ طيب النكهة و

عذوبة الريق ، و عن طيب الريح ، و عن وصف العين ، و عن حسن الحديث ، ... ثم يعود فيمزج الصّفات بالتشبيهات ".(38)

فالاهتمام بالأغراض ليس وليد صدفة أو حسن قصد ،وإنما بعد تأمل كبير في تلك المُصنّفات الشّعرية، فأراد أصحابها الإتيان بطريقة جديدة ،تجعل من القارئ يعيش في جو واحد.

فهذا الاهتمام ترجمه ذكر بعض الشّعراء المغمورين وغير المغمورين، بل حتى المجهول منهم كما فعل أبو تمام ، في اختياره للنّص الشّعري أو القطعة الشّعرية الجيد نظمها المتماسكة فيوردها لحسنها.

و قد كانت هاته الحماسات بين تفصيل و تعميم في الفصول والأبواب، والغاية من ذلك البحث عن الجزئيات و لبنات النّص الشّعري "وربما كان المتأخرون أدقُّ تقسيما من المتقدّمين، وربما اختصروا هذه الأبواب فأصبح البابان المتقاربان بابا واحدا ".(39)

و من المواضيع التي يمكن أن تتداخل مثلا: " مذمّة النساء ،وهي ضرب من الهجاء ، والحديث عن الأضياف يقع بين الفخر والمدح، وانضواؤه تحت أحدهما يصلح التّقسيم ولا يفسده ".(40)

فالحماسات هي وليدة جودة الغرض الشّعري، كما هي وليدة بعضها البعض،فأبو تمام تناول الاختيارات السّابقة وجاء بجديد في تصنيفه الشّعري، وأما البحتري فهو تلميذ لأبي تمام فقد توسع في البديع ، وابن الشجري مزيج بين أبي تمام و البحتري ، وأما العبيدي في حماسته فقد بين سبب اختياراته :" رأيت التماس ما اقترحوا علي أولى وأحرى، فأقدمتُ على اختيار ما هو نفيس المعنى ، بارع اللفظ و الفحوى ، مختار السّبك مستقيم الرصف ، جميل المطلع، حسن المقطع ، و الشاعر متكفّل بشحذ الذهن و جلاء الخاطر، من الحماسات الثلاثة التي وقعت إليّ ... مضيفا إليها لطائف أشعار المحدثين وطرائف قريض المتأخرين في آخر كل باب " .(41)

وخلاصة ذلك حقيقة أن أبا تمام يعتبر أول من صنف الموضوعات الشّعرية، الجاهلية وغير الجاهلية، حسب الأغراض، و تتالت بعده التّصانيف في هذا النوع .(42)

نموذج- أبو تمام و كتابه الحماسة:

مما لا شك فيه والذي يعرفه أهل الأدب و المعرفة أن العصر العباسيّ يعتبر مرحلة تاريخيّة، ومحطة هامة في التاريخ العربي والأدبي، ففيه رجعت الخلافة الإسلامية، وتمّت الفتوحات الكبرى، وقويَت شوكة المسلمين، وظهر المال و مجالس العلم وحِلَقُ الذِّكر. وقد اختلفت الحياة العباسيّة على غيرها، فكثُر البذخ واللّهو، والتّبارز بالشّعر،"فأهم المظاهر التي طرأت على مختلف أوجه الحياة الاجتماعية، التي

كان المجتمع العباسي يحياها ويعيشها، وأهم ملامح التّجديد التي طرأت على حياة الشّعر، في سائر أغراضه وموضوعاته ولغته وأوزانه وقوافيه و صنعته و أسلوبه ".(43)

فهذه الموجة من التّغيير كانت وليدة أفكار سابقة مناهضة للحركة التّقليدية، التي ترى أن الشّعر العربي هو خير ما ورثه العرب، " ربما عرف العرب أن واقع الأدب يؤيّد أنّ الأشعار القديمة هي خير ما أنتجته العقول ".(44)

فهؤلاء التّجديديون خاضوا صراعا بين الصّلة القديمة، والحياة الجديدة بزخرفتها، وبهجتها،تاركة صعوبة الصّحراء، إلى لين الحضر، "فقد عاش العرب موْقِفَين في العهد العباسي،أو قل عَقْلِيَتَيْن : الأولى تريد أن تنجذب للوراء بحكم الدّين و اللّغة ....، والثانية تريد أن ترتبط بالحياة اليومية كما عند أبي نواس، و يندرج ضمن هذا التّيار، التّيار الفنيّ، والذي يريد أن يُبطل قياس الشّعر والأدب على الدين"(45)،وكأن هؤلاء القوم أرادوا تجسيد فكرة الفن للفن التي تدعو إلى فصل الدّين عن الأخلاق، وقد حصر مصطفى بيطام في كتابه مظاهر المجتمع و ملامح التّجديد ودواعيه "العامل السّياسي كظهور الحركات السّياسية ، وغلبة النفوذ الأعجمي، فكثر اللّهو والغناء والمجون والجواري، والعامل الحضاري كالخمور والعُريّ والغزل ، والعامل العقلي القائم على التّرجمة والفلسفة ".(46)

و يُعتبر أبو تمام من الذين يُعزى إليه التّجديد ، فهو قد شاهد قوة سلطان الخلافة العباسيّة،ومظاهر رقيّها .

فالشاعر "حبيب بن أوْس بن الحارث بن قيس"(47)،من قبيلة طيء ،كان أبوه بائع خمر في أحياء دمشق، وقد ترعرع في أحضان والده ثم أسلم، وعاش في هذه القرية مع أبناء الفلاحين.

بدأ حياته بالعمل في دمشق عند حائك ليعلّمه الحياكة،" إلا أنّ حبيبا لم يكن لينتفع بهذا العمل، بل كان يتطلّع إلى المجد، فرحل إلى مصر حيث جامع عمرو بن العاص، وكان يسقي الماء لكسب العيش، ووجد في جامع عمرو بيئة علميّة خصبة صقلت مواهبه وغذّت عقله ".(48) و قد أعانته على ذلك ذاكرته القويّة و حافظته السّريعة ، فحفظ كثيرا من الشعر"و بلغ من الأراجيز وحدها فيما يقال أربع عشرة ألف لأرجوزة غير القصائد والمقطوعات "(49).وهناك عنصر هام غذّى عقل أبي تمام ووجّهه إلى صناعة الشّعر مروره في أثناء رحلته إلى مصر حيث نزل بحمص فلقي فيها أستاذه ديك الجن(50) (161,235هـ)، الذي يُعد من أشعر شعراء الشّام، فتعلّم على يديه في صناعة الشّعر .

و لا تعجب إذا قلنا أنّ المنطق والفلسفة وكتب التّرجمة التي عرفتها السّاحة الأدبيّة من علوم الأوائل لها أثر كبير على أبي تمام، فإنّ الخليفة المأمون قد عُرف تأثُّره بالفلسفة والمنطق، وهذا ما جعله يجلب عددا من الكتب الفلسفيّة ، فأمر العلماء بتعريبها، وحث الناس على تعلُّمها. فغاص أبو تمام في هذا الفكر الجديد، " و قد أوغل في التّأثر بها – يعني الفلسفة – حتى استغلقت معانيه ،وبَعُد شعره عن إفهام أوسط النّاس، فقال فيه الآمدي:"ومثل مَن فضّل أبا تمام ونسبه إلى غموض المعاني، و دِقّتها و كثرة ما يورده مما يحتاج إلى استنباط و شرح، و استخراج ،وهؤلاء أهل المعاني والشّعراء أصحاب الصّنعة، ومَن يميل إلى التّدقيق و فلسفة الكلام ".(51)

و قد استغلّ الشّاعر ثقافة الطّبقة العليا في المجتمع، فكان يمدحهم بكلام غايته ألا يفهمه غيرهم ،حتى يُصبح شاعر الطّبقة العليا ،والتي تظم الخلفاء والأمراء . " و مهما يكن ذوق الناس للشّعر الذي يتوكأ على الفلسفة، فإن أبا تمام رأى الاعتماد عليها يستجيب لرغبات أهل عصره من الممدوحين، في تعميق ثقافتهم و تدقيق معانيها، و إن حاجة الطّبقة العليا إلى شِعْر يناسب مقامها ".(52)

فالشّاعر ذو ثقافة متعددة الجوانب ،وهذا ما اغترفه من بحر الثّقافات الوافدة كاليونانية والرّومانية و الفارسية ، فجعلت منه إماما لمذهب مستقلّ، يعجّ بالزّخرفة الفنّيّة ، فنراه ومن خلال قصائده يتلاعب بين الغريب والبديع، والخيال والغموض، وما يتبادر إلى الذّهن أنّه ليس حقيقة،فهو يُعتبر نقطة وَصْل أو مرحلة نُضْج بين الشّعر العربي القديم الصّحراوي والشّعر العربي الجديد بثوبه الحضري" فتتضح في دقة معانيه و غَوْصه على طرائفها النّادرة محتكما إلى قانوني التّضاد والقياس ... وأما الخصائص الزخرفية فتتضح في روعة التّصاوير وكثير بديعه ".(53)

فأبو تمام هو مدرسة حديثة في المعاني والشّعر الفلسفي، فقد ترجم ما حفظه وما عرفه من بطون الكتب من مفاهيم و مفاتيح للشّعر و الأدب .

حقيقة أنّ لكل من قرأ سيرته في مجاله الأول – النّشأة – ،يلمس منه نفسا طموحة إلى البروز و الشّموخ، فهي النّفس التي لا ترغب أن يكون شاعرا فحسب؛ بل تريده نموذجا أعلى في الحياة،"له نفسا حرّة، تأبَى المذلّة والصّغَار، حتى أنّه يرى فيمن يمدحهم من العظماء صورة نفسه العظيمة، فنستطيع أن نقول أنه يَعُدُّ نفسه نِدًّا لهؤلاء العظماء ".(54)

فقريحة الشّاعر قريحة متوهِّجة، بقدرة فنيّة متدفّقة. فهذا الجمال بنغم موسيقي رائع، متماسك في ألفاظه ومعانيه وليد نظرة بعيدة موجبة، " فشعر أبي تمام حافل بالزّخارف البديعية المتكلّفة، إلا أنّه فصيح اللّفظ، متين السّبك ،مرَصّع بالأمثال

الحكيمة تَرَصُّيعا جميلا"(55)، وإن نفسا تحمل في طياتها شعرا كهذا لامحالة أن يكون مُهابا يُعتَرف له بالشّعر.

وجمع حنّا الفاخوري خصائص شعر أبي تمام في قوله :"أوتِي أبو تمام عبقريّة شعريّة فريدة، و ثقافة واسعة، و عقل غوّاص، وصناعة لفظية و معنوية ".(56)

إنّ الزّخرفة اللّفظية والمعنوية عند الشّاعر لم تكن فطرية فيه ،بل كانت قصدا وعمدا

وغايتها التّبارز، وإظهار القدرة على التّعقيد و التّكلف، يقول أبو تمام (57)

المجد لا يرضى بأن ترضى بأن *** يرضى المُؤمِّل منك إلا بالرضا

فبنية بيت أبي تمام يعقِّدُها إصراره على تكرار فعل واحد ، بصيغة زمنية واحدة، مع تغير الإنشاء .

و على كل فإن شاعريته هي التي جعلت منه فارسا مغوارا سيد عصره، وتاج قومه فسطعت شمسه عالية، وأفلت نجوم بعض الشّعراء، فمُجِّد بوسام أمير الشعراء في البديع .

كتاب الحماسة

كتاب الحماسة من أهم الكتب الشّعرية المُهتمّة بجمع الشّعر . التي مال ذوقها إلى التّصنيف الفنيّ،و داعي ذلك؛ " أن أبا تمام كان يختار ما يختار لجودته لا غير، و يقول ما يقوله من شعر بشهوته، والفرق بين ما يشتهى وبين ما يُستجاد ظاهر، بدلالة أنّ العارف بالبزّ قد يشتهي لبس ما لا يستجيده ،ويستجيد ما لا يشتهي لبسه، ... وهذا الرّجل لم يعمد من الشّعراء إلى المشتهرين منهم دون الإغفال،ولا من الشّعر إلى المتردِّد في الأفواه،المجيب لكل داع ".(58)

و من خلال هذا الكلام الذي أتى به المرزوقي الشّارح الذي يرى في ديوان الحماسة النّموذج الأعلى للشّعر المتماسك؛"أن أبا تمام كان يختار الشّعر الذي يرُوقه دون ما اعتبار لمدى شهرة صاحبه، وإنه لم يشأ أن يعرض على النّاس ما هو مشهور ومتداول بينهم، بل شاء أن يضع بين أيديهم نماذج جديدة من الشّعر الرّائع، لم يُلْتفَت إليه من قبل ... كان يَعرف كيف يستخرج من القصيدة أروع ما فيها، فإذا اصطدم حِسُّه بلفظة قَلِقَة استبدل بها غيرها، حتى يستوفي الكلام عناصر الحُسن اللائقة به ".(59)

كل هذه العوامل جعلت منه شاعرا بليغا يُقتدى بشعره ،و يُنظر فيه على أنه أساس الجودة والحكمة في الاختيارات،" و قد ساعده أن يصْبح من العلماء بالشّعر قديمه و حديثه؛ ذكاء حاد ، و حافظة قوية، تستوعب بيُسر كل ما يطالعه الشّاعر، وهما أمران ما اجتمعا عند امرئ إلا يسّرا له سبيل العلم والرواية ".(60)

و الشّعراء على اختلافهم مُحسنهم و مُسيئهم ، قديمهم و حديثهم، لنجد فيه السّهل والصّعب، و العجيب والمبتذل ،والمقبول والمرفوض، وهذا حسب قدراتهم وأذواقهم ،"أما أبو تمام فكأنه تعَمَّد الخروج عما يعرض نفسه من ذلك على الشّعراء عرضا إلى الإفراط في الطّلب، والتّوغل في التّكلف و التّعمُّل و الافتعال ".(61)

و يُلاحظ أن أحمد شوقي كان يُمجِّد الثّورة على الشّعر، فهو يعتبر أنّ أبا تمام فنانا كبيرا، حيث مال إلى الذّوق "و يمكن القول أن أبا تمام قد حكَّم ذوقه الفنّي، ومعيار الجمال الفنّي في اختياراته . كانت اختيارات الشّاعر الفنان، ولم تكن اختيارات عالم اللّغة أو المحدِّث، ومن ثم نراه لا يأتي بالقصيدة كاملة مثلما فعل الضّبّي و الأصمعي من قبل ، ولكنه يختار من القصيدة الأبيات والمقاطع التي تناسب ذوقه الفنّي، ومعاييره النقدية ".(62)

و قد علّل المرزوقي سبب اختيارات أبي تمام، وسبب إبدال الكلمة بأختها عند الشاعر؛ ذلك عصارة نقده " لأن ضروب الاختيار لم تُخْفَ عليه ، وطُرق الإحسان و الاستحسان لم تُستَتر عنه، وحتى إنه ينتهي إلى البيت الجيّد في لفظة تُشينه، فيجْبر نقيصته من عنده ، ويبدل الكلمة بأختها في نقده"(63)، و هذا ما يجسِّد حقيقة الذّوق الإبداعي لديه ،أما الحديث على هذه الطريقة من الاختيارات، فهي وليدة نظر حاذق، و بعد فكري واسع، لأنّه من المعلوم أن الشّاعر قد اطّلع على عدة مصنّفات في الشّعر، فأراد الإتيان بمنهج جديد ،"و لعل الأقرب أنّ الفكرة كانت مختصرة في ذهنه، ورُبما قطع فيها شوطا، فلما فُرضت عليه هذه العُزلة أتمَّها، أو لعله وقع على مجموعات مصنَّفة على نحو ما فأعمل فيها ذوقه قبولا ورفضا ،ومِن ثم كانت مُهمّته ميسورة وجهده محدودا".(64)

و من خلال هاته الومضة في الكتب التي تطرّقت إلى الاختيارات - و خاصة المصنّفة تصنيفا موضوعيّا – تجعل من طريقة أبي تمام النّموذج الأعلى، وهو الذي أتى بها وبناها على الذّوق، فهو قد يستعير الكلمة بَدَلَ أختها ،حفاظا على جودة النّص وملائمة أجزائه لبعضها، فالشّعراء تختلف درجات نجاحهم في تناول الغرض الشّعري، فيُجيد في غرض ويخفق في آخر، فمن الصّعب أن تجد شاعرا له القدرة الكاملة على القول في جميع الأغراض بقوة وجودة "والشّعراء أيضا في الطّبع مختلفون ،منهم من يَسْهل عليه المديح و يَعْسُر عليه الهجاء، ومنهم من يتيسّر له المراثي و يَتَعَذّر عليه الغزل ". (65)

فأبو تمام مع العلم أنّه من كبار الشّعراء الذين اهتمّوا بالبديع و قريضه ،و جعلوا منه منهجا يُتَّبَع، بل ميزانا في جودة النّصوص، وهو سرّ اختياراته ، فنظرته إلى الشّعر الجيّد ما شهد له النّاس جميعا بالجودة ،"و سواء أكان قد حُمل على هذا الاختيار من باب الشّغف بأن تتحلى قصائده بما ورد متفرِّقا في أشعار المتقدِّمين، مثلما يذهب إليه أكثر

النُّقاد القدامى أم كان قصده، وأمعن في الاشتداد في أثره من باب الاهتداء إلى سرّ صناعة القريض، واكتشاف المخفيّ من خفاياها، فإنه قد حرص على أن يخالف نصائح النّقاد و العلماء". (66)

و إجمال ذلك ما دار حول اللّفظ و المعنى، لأن أبا تمام "يشير إلى جملة من خصائص اللفظ التي بها يَحْسن وأضدادها التي تقبحه وتشينه ، وأمثلة أخرى لخصائص المعاني الجيدة والمستهجنة ".(67)

و إنّ القراءة الجيِّدة للشّعر العربي القديم عند أبي تمام واستيعابه لقواعد إرتأى أن يجد لنفسه مسلكا لا بد له منه، بل ثورته على القديم لاءمت عصره وواكبته،" فإن "المطّلع على تاريخ حياة أبي تمام يتّضح له أنّه الأكثر استيعابا للشّعر القديم، ووعيا له من البحتري نفسه ،ويبدو هذا بشكل واضح من كثرة ما حفظ، وجمع من هذا التراث،ويكفي اعتراف خصومه بهذا".(68)

فلسفة التّجديد والاهتمام بالمعاني أنجبت شعرا جديدا بثوب جديد، فهي مذهب من مذاهب أبي تمام، التي لم يُسَاير فيها ركْب الشّعراء القدامى، ولا طريقتهم المعهودة،"فأما أبو تمام وأبو الطيب فربَّا المعاني، أما البحتري فربّ الألفاظ في ديباجتها و سبكها ".(69)

و من المعلوم أنّ أبا تمام قد انتهج هذا المنهج في تصنيفه لديوان الحماسة، هذا حسب ما رآه من ميول الشّعراء أنفسهم، و ما دار عليه شعرهم،" والشعراء إنّما أغراضهم التي يسدِّدُون نحوها وغايتهم التي يترعون إليها ؛ و صف الدّيار والآثار، والحنين إلى المعاهد والأوطان ، والتّشبيب بالنّساء، والتّلطيف في الاجتداء.والتَّفنُّن في المديح والهجاء".(70)

و من هذا المنطلق نخوض غمار رحلتنا في شاطئ الحماسة متأمّلين في ثناياه" فأبو تمام أحد جهابذة الكلام ونقّاد المعاني، وفي شعره الرَّائق الذي لم يُسبق إليه ، والفخم الجزل الذي لم يشارَك فيه"(71)، ويعتبر كتاب الحماسة – كما سبق الإشارة إليه – أنه أول كتاب صَنَّف النّصوص الشّعرية تصنيفا موضوعيا . "وأبرز ما يميّز ديوان الحماسة أنّه أوّل مجموعة شعرية تُصنَّف فيها الأشعار تصنيفا موضوعيا، فقد قسَّمها أبو تمام إلى عشرة أبواب، وجعل كل باب مختصًّا بفنٍّ من فنون الشعر العربي : باب الحماسة ، باب المراثي ، باب الأدب ، باب النسيب ، باب الهجاء ، باب الأضياف والمديح ، باب الصفات ، باب السِّيَر والنُّعاس، باب المُلَح ، باب مذمّة النساء، وهذه الأبواب العشرة هي أبوب الحماسة"(72).

و قد عُرفت باسم الحماسة "واشتهرت باسم الباب الأول منها، و هو باب الحماسة و ذلك من إطلاق اسم الجزء على الكل، و قد وافق هذا أيضا كَوْن باب الحماسة أكبر أبواب الكتاب إذ يحتلّ ثُلُثَ الاختيارات تقريبا، وأيضا لما للحماسة والحديث عن الشّجاعة والفُتوّة من جذور عميقة في الوجدان العربي "(73)،و كذلك أن جميع الأغراض الشّعرية لها صلة بالحماسة؛ فالمديح والفخر لا يقلّان أهمية على الحماسة في النّشوة و النّخوة و القوّة، وما يحمله الهجاء من تحمُّل العاقبة،والتّصدُّر للقول، بل وردّة فعل المهجو.

وقد علّق عز الدين إسماعيل على هذا التّبويب" فقد أبرز فيه اجتهادات المُؤلِف الذي جمع بين كل متجانس من المضامين في باب واحد، ففي باب الأضياف والمديح جمع بين الفخر بالكرم والمروءة ،والمديح والفخر لما يظهر له من التّوافق و التّناسق بينهما،لما فيهما من ذكر المحاسن، وإن كان قد أغْفل المزْجَ بين الرثاء و المديح ، و في باب السِّير و النُّعاس جمع بين ما قيل في السُّرى والليل، وما يعتري المسافرين من سهر وإرهاق، وفي باب الصّفات كان وصفه لمشاهد طبيعيّة أو كائنات حيّة ".(74)

و لو أنّ أحدا تساءل كيف اهتدى المؤلِّف إلى هذه الأبواب؟ وكيف جانس بينهما؟، "فالقول فيه أن أبا تمام كان يختار ما يختار لجودته لا غير، و يقول ما يقوله من الشعر بشهوته ".(75)

وإلى جانب التّجديد في الشّعر" كانت اختيارات الشّاعر الفنّان ،ولم تكن اختيارات عالم باللّغة ، أو المُحدّث ... و ضمّن كل باب أجْوَد ما قيل في هذا المضمون " (76).

فاللّغة الشّعرية والاهتمام بالبديع في قوة التّصوير الخياليّ وتجسيد الفكرة ساعدت المؤلِّف في اختياراته للنّصوص ، فهو الشاعر النّاقد الذي اقتدى بأسلافه و إن جدَّدَ ،فإنّه حاول من بين المُحدثين الاقتداء بالأوائل في الكثير من ألفاظه ، فحصل منه على توعير اللفظ و تبجُّح في غير موضع من شعر فقال :"

فكأنّما هي في السّماع جنادل *** و كأنّما هي في القلوب كواكب

فتعسّف ما أمكن، وتغلغل في التّعصّب كيف قدر "(77)، وهذا التّجديد ناتج على محاولة في نظر المؤلِّف – الشاعر – ،و يقينه إلى ضرورة الخروج عن القديم . وهذا كله صادر على ركيزتين هما : ُنُضْجُ هذا الشعر فنّيا، و ثانيهما نُضْج الأفق النّقدي، واتساعه لتقبل الحقائق الأدبية الجديدة تقبُّلا موضوعيا ً.(78)

و هذا الحديث عن أبي تمام و شعره، دليل على مرحلة أخرى من الاختيارات ،فالشاعر كان يميل إلى التّجديد في كل شيء، بل الإتيان بما لم يسبق به ، فهو وليد

حنكة تجديديّة إبداعية فرضها العصر و الشّهرة ، لأن الذّوق بين الأدباء و النّقاد و الشّعراء وأصحاب الاختيارات مُختَلِف، كل حسب ما يراه داعيا إلى ذلك .

فطابع التّجديد لم يكن وليد فكر المؤلِف – أبي تمام – ،بل كذلك وليد ما عرفته السّاحة الأدبيّة و النّقديّة في ذلك العصر، و كل جديد هو وليد تجربة .

ومفهوم "التّجديد لا يعني الثّورة على كل ما هو قديم ،بل يعني تجاوز حاجز الثبات والتحجّر في القديم والتّسلّح بأصالته، وهذا الالتقاء المتناسب بين القديم والحديث هو الذي يضفي على النّمو طابعا من الدّوام والقوة والأصالة" .(79)

فمن الخطأ الجسيم ألا نرى أنّ هذا التّجديد الذي أتى به أبو تمام، سواء أكان هذا في شعره،و الذي اهتم فيه بالمعاني و الزّخارف، أو ما تضمّنته الحماسة من شعر بطريقة جديدة ،تواكب عصر وذوق المؤلِف .

وأما الصّورة التي تحاكيها هذه الحماسة ،فالملاحظ أن أبوابها ليست متناسقة أو متوازية؛ فالدّيوان في مجموعة تظم ثمانمائة وإحدى و ثمانين (881) قطعة، غير موزعة على الأبواب العشرة فيه توزيعا متساويا، أو حتى متقاربا ". (80)

فباب الحماسة استأثر باهتمام أبي تمام فكان أكثر الأبواب نصيبا من الشّعر .وكذلك من الأشياء التي انفرد بها "قد يكرر مقطوعتين بروايتين لشاعر واحد في باب واحد مثل مقطوعة سالم بن قحفان، التي جاءت في باب الأضياف و المديح"(81) ،وكما أسلفنا الذّكر أن باب الحماسة هو أكبر أبواب الدّيوان ،وإليه نُسِبَت، فهو يقارب ثلث القصائد و المقطوعات التي اختارها.

وفي هذه النقطة نذكر عز الدين إسماعيل الذي قد شكّك أن هذا الاسم هو مَن أطلقه أبو تمام، بل هو عادة المؤلّفين، فالتّسمية لأول باب، أو لأكبر شيء فيها، " أما فيما يتعلق بتسمية الدّيوان كله بكتاب الحماسة فيبدو أنّ أبا تمام قد جرى في هذا على التّقليد ".(82)

فلكل جديد طعمه الخاص، وطابعه الملفت،فبهذا المنهج الجديد قد جذب أبو تمام القوم واستمالهم إليه، حتى أصبحت ُالحماسة ُمن أهم الأشياء التي عُنِي بها الشُّرّاح والنّقاد، وآلت إليها الأسبقيّة في التّصنيف، فما نالته من شهرة لم تسبقها المصنّفات إليها، وأيًّا كان الأمر فإن أبا تمام في تصنيف أشعار الحماسة قد جذب إليه كثيرين من الشعراء وعلماء الأدب واللغة، فصنّفوا على غرارها ،ومنهم من اعترف اعترافا صريحا بتأثّره والاقتداء به .(83)

وفي هذا إشارة إلى حماسة البحتري، و ابن الشّجري، فشهرتها وثوبها الجديد جعلاها محطّ أنظار هؤلاء القوم ،فتوالت شروحاتها و التّعاليق عليها، و من أشهر الذين شرحوها

المرزوقي، والتّبريزي. والصّولي، وابن جني في كتابه المبهج ،وغيرهم. و قد أشار عبد اللّه عسيلان (84)إلى أن هناك شروحات مفقودة ً كشرح أبي رياش، وشرح أبي هلال العسكري،و شرح أبي العلاء المعري.

و يبقى شرح المرزوقي و التّبريزي من أهم الشّروحات المشهورة للحماسة . وعلى كل فإن هذا المنهج قد أرسى دعائم التّطوير، و حسن الاختيار و التّصرف، فأبو تمام هو شاعر مبدع عالم باللغة ،يتعامل مع المعاني وقوة الخيال بكل سهولة ، هذا ما ساهم فيه ذكاؤه الحاد وحنكته، فهو وليد بيئة جديدة عبّاسية حضريّة ،عرفت مجالس العلم والفكر والشّعر، كما عرفت ثورتها التغييرية في مجال الأدب.

الهوامش:

1. عفيف عبد الرحمن ،الأدب الجاهلي في آثار الدارسين قديما و حديثا ،دار الفكر ،(دط)،(دت) ،ص20.
2. أحمد الشايب ، أصول النقد الأدبي ، مكتبة النهضة المصرية ، مصر ، ط 10 ، 1994 ، ص 121 .
3. ينظر محمد سلام زغلول ، تاريخ النقد العربي من القرن الخامس إلى العاشر ، دار المعارف مصر، (دط)، (دت)،ص 99 .
4. ينظر أحمد شوقي ،من المصادر الأدبية واللغوية ،دار العلوم العربية ،بيروت لبنان (دط)(دت) ص14.
5. عمر عروة ، دروس في النقد الأدبي القديم ، أشكاله و صوره و مناهجه ، ديوان المطبوعات الجامعية ، 2010 ، ص 105
6. أبوعلي أحمد بن محمد بن الحسن المرزوقي ، شرح ديوان الحماسة لأبي تمام دار الكتب العلمية ، بيروت لبنان ، ط 1 ، 2003 ، ص 10.
7. أبو مسلم محمد بن قتيبة ، الشعر و الشعراء تحقيق أحمد شاكر ، دار المعارف ، القاهرة ، (د ط) (د ت) ج 01 ، ص20.
8. ليلى عبد الرحمان الحاج قاسم ، الذوق الأدبي في النقد القديم ،رسالة ماجستير،جامعة أم القرى ، المملكة العربية السعودية ، 1403 هـ 1404 هـ، ص 49
9. المرجع نفسه ، ص49 .
10. جهاد المجالي ، طبقات الشعراء في النقد الأدبي عند العرب ، دار الجيل ، لبنان ، مكتبة الرائد العلمية ، الأردن ، ط1 ، 1992 ، ص 89 .
11. القرشي ، جمهرة أشعار العرب في الجاهلية و الإسلام ،تح محمد علي البجاوي ،دار النهضة مصر ،(دت)1981 ص11.
12. ابن قتيبة ، الشعر و الشعراء ، ج 01 ، ص 86 . و في هذا المجال أورد كذلك أقسام الشعر، و كيف كان تفضيل النصوص عن بعضها من خلال البحث عن اللفظ و المعنى .
13. مجلة الآداب مجلة أدبية فكرية تصدر عن معهد الآداب و اللغة العربية ، جامعة قسنطينة ، العدد الأول ، 1994 ، ص 70 .
14. أحمد شوقي ، من المصادر الأدبية و اللغوية ، ص 14 .
15. جهاد المجالي، طبقات الشعراء في النقد الأدبي عند العرب ، ص 88 .
16. محمد فاخوري، مصادر التراث و البحث ، مديرية الكتب و المطبوعات الجامعية حلب ،(دط)1996،ص 17 .
17. الطاهر أحمد مكي،دراسة في مصادر الأدب ،دار الفكر العربي ،القاهرة ،ط8، 1999 ص 106-107 .
18. عز الدين إسماعيل ،المصادر الأدبية و اللغوية ، دار المسيرة ، الأردن ط1 ،2003،ص 63.

19. المفضّل الضّبيّ المفضّليات ، تحقيق أحمد شاكر وعبد السلام هارون ،دار المعارف القاهرة ،ط6 ،(دت)، ص 09 .
20. عز الدين إسماعيل ،المصادر الأدبية و اللغوية ، ص 64 .
21. أحمد شوقي،من المصادر الأدبية و اللغوية ، ص 28 .
*يقول شوقي ضيف في هذه النقطة بعد حديثه على تلك الزيادة : "و كأن المفضل اختار أولا ثمانين قصيدة إلى المهدي ، ثم زادها إلى مائة و ثمان و عشرين كما جاءت في رواية تلميذه ابن الأعرابي" ،العصر الجاهلي ، ص 177 .
22. ينظر عز الدين إسماعيل ، المصادر الأدبية و اللغوية ، ص 64 .
23. المرجع نفسه ، ص 65 .
24. زيد بن محمد الجهني ،الصورة الفنية في المفضليات ، أنماطها وموضوعاتها ومصادرها ....،مكتبة الملك فهد ، المدينة النبوية ،ط1 ،1423 هـ ج01 ، ص 35 .
25. عز الدين إسماعيل ،المصادر الأدبية و اللغوية ، ص 65 .
26. طه أحمد إبراهيم ،تاريخ النقد الأدبي عند العرب ،(دط)(دت)،ص 62 .
27. زيد بن محمد الجهني ،الصورة الفنية في المفضليات ، ج 01 ص 62 .
28. محمد فاخوري ،مصادر التراث و البحث ، ص 18 .
29. شوقي ضيف،العصر الجاهلي ، دار المعارف القاهرة ،ط24، 2003،ص 177 .
30. عز الدين إسماعيل ،المصادر الأدبية و اللغوية ، ص 65 .
31. أحمد شوقي ،من المصادر الأدبية و اللغوية ، ص 28 .
32. عز الدين إسماعيل ،المصادر الأدبية و اللغوية ، ص 83 -84 .
33. المرجع نفسه ، ص 84 .
34. جهاد المجالي، طبقات الشعراء في النقد الأدبي ، ص 91 .
35. القرشي،جمهرة أشعار العرب ، ص 011 .
36. جهاد المجالي، طبقات الشعراء في النقد العربي ، ص 137 .
37. الطاهر أحمد مكي ، دراسة في مصادر الأدب ، ص 116 .
38. عز الدين إسماعيل ،المصادر الأدبية و اللغوية ، ص 99
39. غازي طليمات ، الأدب الجاهلي قضاياه و أغراضه ، أعلامه ،فنونه ، مكتبة الإيمان ، سوريا ، ط 1 ، 1992 ، ص 62.
40. المرجع نفسه ، ص 62 .
41. عز الدين إسماعيل، المصادر الأدبية و اللغوية ، ص 109 .
42. ينظر شوقي ضيف العصر الجاهلي ، دار المعارف ، القاهرة ، ط 24 ، 2003 ، ص 196.
43. مصطفى بيطام ، مظاهر المجتمع و ملامح التجديد من خلال الشعر في العصر العباسي الأول ، ديوان المطبوعات الجامعية،ص 6 .
44. عمر عروة،دروس في النقد الأدبي القديم ، ص 95 .
45. المرجع نفسه ، ص 96 ،وحسين الواد ، اللغة الشعر في ديوان أبي تمام ، دار المغرب الإسلامي ط2005،1،ص 16 .
46. ينظر مصطفى بيطام، مظاهر التجديد و ملامح المجتمع ، ص 245 – 251 .
47. أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن أبي بكر بن خلكان ،وفيات الأعيان و أبناء الزمان تحقيق د / حسان عباس ، دار صادر ، بيروت ،(د ط)(د ت)، ج 02 ، ص 11 .
48. المصدر نفسه ، ص 10 .
49. الطاهر أحمد مكي ،دراسة في مصادر الأدب ، ص 117- 118 .

50. ديك الجن هو محمد عبد السلام بن رغبان بن تميم الملقب بديك الجن ، كان مولى لطيء ،ولد بحمص ، الوفيات ،ج 01،ص 184 - 188 .
51. موهوب المصطفاوي، المثالية في الشعر العربي ، ديوان المطبوعات الجامعية ، الجزائر ، 1982 ، ص 479 .
52. المرجع نفسه ، ص 484 .
53. شوقي ضيف ، العصر العباسي الأول ، دار المعارف ، ط 16 ، 2004 ، ص 278 .
54. موهوب المصطفاوي ،المثالية في الشعر العربي ، ص 487 .
55. عمر عروة،دروس في النقد الأدبي القديم ، ص 143 .
56. حنا الفاخوري ،الجامع في تاريخ الأدب القديم ، دار الجيل ، بيروت ، لبنان ، ط 1 ،986 1، ص 729 .
57. ينظر عمر عروة،دروس في النقد الأدبي القديم ، ص 147 .
58. أبو علي أحمد بن محمد المرزوقي ، شرح ديوان الحماسة لأبي تمام ، علق عليه و كتب حواشيه غريد الشيخ ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ، مقدمة الشارح ، ط 1 ، 2003 ، ص 14 .
59. عز الدين إسماعيل ،المصادر الأدبية و اللغوية ، ص 82 – 83 .
60. موهوب المصطفاوي، المثالية في الشعر العربي ، ص 488 .
61. حسين الواد ، اللغة الشعر في ديوان أبي تمام ، دار المغرب الإسلامي،ط1، 2005،ص 06 .
62. أحمد شوقي ، من المصادر الأدبية ، ص 49 .
63. المرزوقي ،شرح ديوان الحماسة ، ص 04 .
64. الطاهر أحمد مكي دراسة في مصادر الأدب ، ، ص 121 .
65. جهاد المجالي ، طبقات الشعراء ، ص 137 .
66. حسين الواد ، اللغة الشعر في ديوان أبي تمام ، ص 21 -22 .
67. محمد زغلول سلام ، تاريخ النقد العربي من القرن الخامس إلى العاشر الهجري ، ص 108 .
68. عثمان موافي ،الخصومة بين القدماء و المحدثين في النقد العربي القديم ، تاريخها و قضاياها ، دار المعرفة الجامعية، ط 4، 2000 ، ص 82 -83 .
69. عمر عروة ،دروس في النقد الأدبي القديم ، ص 132 .
70. المرزوقي ،شرح ديوان الحماسة ، ، ص 18 .
71. حسين الواد ،اللغة و الشعر في ديوان أبي تمام ، ص 33 .
72. عز الدين إسماعيل، المصادر الأدبية و اللغوية ، ص 83 -84 .
73. أحمد شوقي،من المصادر الأدبية و اللغوية ، ص 50 .
74. ينظر عز الدين إسماعيل ، المصادر الأدبية و اللغوية ، ص 84 .
75. المرزوقي ، شرح ديوان الحماسة ، ص 13 .
76. عز الدين إسماعيل، من المصادر الأدبية و اللغوية،ص 34
77. حسين الواد ،اللغة و الشعر في ديوان أبي تمام ، ص 14 - 15 .
78. عثمان موافي ،الخصومة بين القدماء و المحدثين ، ص 123 .
79. عبد الله بن حمد المحارب ، أبو تمام بين ناقديه قديما و حديثا ، مكتبة الخناجي ، القاهرة، ط 1 ، 1992 ، ص 39 .
80. عز الدين إسماعيل، المصادر الأدبية و اللغوية ، ص 85 .
81. عبد الله عبد الرحمن عسيلان، حماسة أبي تمام و شروحاتها ، دراسة وتحليل ، دار الكتب العربية ،مصر،(دط)(دت)، ص 39 .
82. عز الدين إسماعيل، المصادر الأدبية و اللغوية ، ص 84 .
83. المرجع نفسه ،ص86
84. ينظر عبد الله عبد الرحمن عسيلان ، حماسة أبي تمام و شروحاتها ،ص86